جامعة باجي مختار – عنابة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم اللغة العربية وآدابها

ليسانس ك السنة الثانية شعبة الدراسات الأدبية

الحداثة في الأدب العربي / أ. الطاهر رواينية

قصيدة النثر :

تشكل قصيدة النثر ممارسة تجريبية متحررة من كل قيود الشعرية العربية القديمة في سعيها المتوتر نحو التحول والتجديد ، حيث يمكن اعتبارها " مغامرة تهدف إلى فتح دروب الحرية كفعل للاختيار ، والولوج في المجهول ، وهو ما يمكن من خلق تجريب إبداعي يكشف المنحجب ، ويعري بؤرة التوتر الحي الخالق دوما لأسئلته اللامتناهية ، كما يعري أيضا جوهر الديناميكية الفاعلة للإنسان " [1]، يجعل من قصيدة النثر تتمرد على المألوف والجاهز ، وتذهب في طريق التجريب والتجاوز إلى حدهما الأقصى ، والتجريب كما يراه أدونيس لا ينهض وفقا لما هو راهن ، وإنما ينهض كتجاوز له ، من أجل الكشف عن بديل أشمل وأعمق [2] ، بإمكانه التأسيس للاكتناه العميق للذات والعالم والأشياء ، وذلك من خلال التمرد على الذهنية التقليدية ، والوصول بهذا التمرد إلى أقصى ما تتيحه التجربة الشعرية ، لأن الأمانة للأشكال والأساليب القديمة يتعارض مع فعل الحرية الذي تتبناه قصيدة النثر ، حيث " كان التجريب بمثابة التدمير لكل الثوابت ، ولم يكن الهدف منه تأسيس ثوابت ومرجعيات جديدة ، وإنما التأسيس للنقيض الذي يتجاوز نفسه باستمرار ، والذي ينأى بنفسه عن الركون إلى الأجوبة النهائية " [3] .

تعد قصيدة النثر على مستوى الخاصية الأجناسية جنسا هجينا ، يجمع بين الشعر والنثر ، وهو ترجمة للمصطلح الفرنسي :poème en prose ، وهذا في حد ذاته يطرح إشكالا يتعلق بالمرجعية الثقافية لقصيدة النثر ، فهناك من رافدا من الشعر والنثر العربيين ، باعتبار لما يجمع بينهما من نزوع نحو التعالي والسمو يحاكي فيهما النثر الشعر ، كون كل الفنون تحاول أن تسمو سمو الشعر ، حيث يرى بول شاوول" أن النثر العربي مكتنز على امتداد عصوره حالات شعرية وخيالية وعاطفية قربته من الشعر ، بل يمكن اعتبار بعض النصوص النثرية روائع شعرية كاملة ، بفضل ما تحمل من طاقات تأثير ، وكان كل ذلك يبشر بقصيدة النثر ويفتح لها الطريق ، فثمة سجع الكهان وبعض الخطب في الجاهلية " [4] يضاف إلى ذلك أثر تسامي وإعجاز النص القرآني ، حيث يقول أدونيس :" لم يكن القرآن رؤية وقراءة جديدة للإنسان والعالم وحسب ، وإنما كان أيضا كتابة جديدة . وكما أنه يمثل قطيعة مع الجاهلية على مستوى المعرفة ، فإنه يمثل أيضا قطيعة معها على مستوى الشكل التعبيري . هكذا كان النص القرآني تحولا جذريا وشاملا : به وفيه

تأسست القلة من الشفوية إلى الكتابة ؛ من ثقافة البديهة والارتجال ، إلى ثقافة الروية والتأمل ، ومن النظرة التي لا تلامس الوجود إلا في ظاهره الوثني ، إلى النظرة التي تلامسه في عمقه الميتافيزيقي ، وفي شموله – نشأة ومصيرا، ومعادا " [5] ، وفي هذا السياق يعد محمد علاء الدين عبد المولى قصيدة النثر نتاج تطور النثر العربي ، حيث يرى " أن إلحاق قصيدة النثر بالشعر العربي أمر ينطوي على مفارقة ، إذ إن سمات قصيدة النثر هي سمات النثر العربي لا الشعر [...]وما ينبغي النظر إليه هو أنها ثورة في النثر لا ثورة في الشعر . فلقد أنجزت في النثر ما يشبه الثورة حتى صارت لا تشبه النثر الذي تمخضت عنه ، وشكلت لنفسها آفاقا تعبيرية ورؤيوية خاصة بها ، جعلتها خارج نهج القصيدة العربية ، وخارج الشكل والمفهوم التاريخي للنثر العربي "[6] .

يجمع الكثير من النقاد العرب على أن لقصيدة النثر روافد في الأدب العربي ، مثلما لها في الآداب الغربية ، نورد منها :

1- الشعر المرسل ؛ وهو شعر لا يلتزم بالقافية ، يتكون من أبيات موزونة غير مقفاه ، يتيح للشاعر التعبير عن تجاربه الذاتية في بساطة وتلقائية .
2- الشعر الحر / أو شعر التفعيلة ؛ يرى بول شاوول أن قصيدة النثر اغتنت من الشعر الحر ، ومن الخصائص المشتركة بينهما ، نذكر منها :
- الإيقاع الداخلي - التخلص من وحدة البيت - وحدة الموضوع – الحرية والتمرد على الموروث [7].

3 - النثر الشعري ؛ هو نمط من الكتابة النثرية في الآداب الغربية ، يستعير من الشعر بعض أساليبه الخاصة دون أن يعني ذلك أن الأعمال النثرية تسعى لأن تكون شعرية ، كون التعبير في النثر الشعري يتجاوز الفكر والمنطق إلى ما يمكن تسميته بحركات الكائن الداخلية ، مستخدما الصورة والإيقاع ، والكلمة ، لا التأويل والشرح ، ولكن التحريك والإشارة ، وهو أسلوب من أساليب النثر تهمن فيه الروح الشعرية ن من خلال قوة العاطفة والخيال وإيقاع التركيب ، والمجاز، وهو متواتر في كتابات جبران خليل جبران بخاصة.

4-الشعر المنثور ؛ لا يعتنى فيه بالوزن ولا بالقافية ، مستلهم من الإنجيل ومن ترجمات الشعر الكلاسيكي والحديث ، للامارتين وشتوبرين ، وفيكتور هوجو ، وغيرهم من الشعراء الغربيين ، يقوم على أساس الإيقاع النثري اعتمادا على موسيقى الفكر ، نذكر من بين عناصرها : ا

- لتوازي – الترادف – التقابل – التنظيم التصاعدي للأفكار – تكرار السطور والأفكار في مجموعات متنوعة [8] .

أما حسين نصار فيحدد عناصره كما يلي :

- التدفق العاطفي الحر – توفير لون من التنغيم بالاعتماد على الجمل القصيرة متساوية الطول – التصوير والإيحاء – التكرار – التقسيم [9] .

وهناك من يرى أن الشعر المنثور ليس كشعر القصيدة ، ولا كنثر المقال ، ولكنه أسلوب ثالث ، يتميز بخاصيته المجازية ، بالإضافة إلى تحلله من الوزن والقافية ، وباستبداله البيت بالسطر ، شأنه شأن قصيدة النثر وهذه الخاصية السطرية هي التي بنت عليها نازك الملائكة هجومها على قصيدة النثر ، وذلك بتغير طريقة تشكيل مقطع من قصيدة لمحمد الماغوطة ، لكي يفقد خاصيته الشعرية ويتحول على مقطع نثري ، يقول الماغوط :

لأن الكلمات الأخيرة ستقال في ليلة ما

لأيدي

سفينة مطفأة بين دربين من النجوم

ساهجر المطر والريح

سأترك الجوع يتراكم بين أسناني

كما يتراكم الثلج بين أجنحة العصافير [10]

وفي سياق آخر ، يعترف أغلب رواد قصيدة النثر بأثر الترجمة من الآداب الغربية بخاصة في كتاباتهم لقصيدة النثر ، من بينهم أدونيس الذي يعترف أن كتابته لقصيدة " وحده اليأس " سنة 1958 كان بتأثير من ترجمته قصيدة لسان جون بيرس ، حيث كشفت له هذه الترجمة – كما يقول - عن طاقات وأساليب للتعبير لا يستطيع الوزن توفيرها [11] ، كما يشير أنسي الحاج إلى أن الترجمات عن الشعر الغربي تعد من بين العوامل الممهدة لظهور قصيدة النثر على مستوى الشكل على الأقل [12] .

ونتيجة لذلك يعد ادونيس أول من استعمل مطلح قصيدة النثر نقلا عن المطلح الفرنسي poème en prose ، من خلال مقال موسوم بـ" مقالة في تعريف الشعر الحديث " [13]، ثم في مقال ثان موسوم بـ" في قصيدة النثر "[14]

+ مجلة شعر وتجربة قصيدة النثر :

احتضنت مجلة شعر اللبنانية التجارب الشعرية لرواد قصيدة النثر من أمثال : أدونيس ، أنسي الحاج ، ومحمد الماغوط ، وشوقي أبوشقرا ، وجبرا إبراهيم جبرا ،

وتوفيق صايغ ، وعصام محفوظ ، وخصت لذلك ما كان يعرف بجلسات الخميس ، يناقش فيها ما يثيره هذا النوع من الكتابة الشعرية الجديدة من مفاهيم جديدة ، من بينها :

- أن الموسيقى الشعرية لهذه القصيدة هي حركة داخلية متناغمة متحدة بالتجربة الشعرية .
- هدم الحد الفاصل بين الألفاظ الشعرية والألفاظ غير الشعرية .
- التأكيد على الوحدة العضوية في القصيدة ، والتخلي عن التفكك البنائي القائم على الوحدة الشكلية

كما اهتمت مجلة شعر بالتمييز بين النثر الشعري وبين قصيدة النثر ، في الفضاء الثقافي العربي : بين جبران خليل جبران وأمين الريحاني ومي زيادة من ناحية النثر الشعري ، وبين أنسي الحاج ومحمد الماغوط ، وأدونيس ... وغيرهم من كتاب قصيدة النثر ، بدءا من ربيع 1960 ، وقد احتدم الجدل بين رواد قصيدة النثر بعد قراءتهم لأطروحة سوزان برنار حول قصيدة النثر [15]، حيث ترى سوزان برنار " أن النثر الشعري أول مظهر للتمرد ضد القواعد القائمة والطغيان الشكلي الذي مهد لقصيدة النثر " [16] .

والملاحظ أن الجدل الذي انخرطت فيه مجلة شعر حول قصيدة النثر ، كان – في حقيقة الأمر حول ثقافة الحداثة – بين دعاة الحداثة وبين معرضيها ، تناول أسسا ثقافية وفكرية وإيديولوجية متعارضة ، ولذلك كان الدفاع عن قصيدة النثر ، هو دفاع عن مواقف فكرية وإيديولوجية ، تتخذ من حرية الفكر والإبداع ، والخروج على قيم الثبات والأصالة ، ممارسة للاختلاف وتبنيا لقيم الحداثة ، فـ " لم يعد الشعر العربي [كما يقول محمد بنيس] مستسلما لنمط أولي ، أو للغة مشتركة ، فالسياب أو أدونيس أو يوسف الخال ، أو خليل حاوي ، أو صلاح عبد الصبور ، أو البياتي ، أو محمود درويش ، او سعدي يوسف ، حتى نقتصر على أسماء تبدو لنا مالكة لصلاحية ابتداء اللحظة وامتدادها ، ، يشكلون جميعهم ممارسات تتناغم مع السفر نحو الاستثنائي ، وكل ممارسة تسافر حيث عتمة الكتابة فردية ، يهيئها بطلان الذاكرة ، أي النمطي والمشترك ، كما كان عليه الأمر في الشعر التقليدي " [17] ، حيث يشكل هذا الاستثنائي في الكتابة الشعرية الجديدة تحركا دائما في اتجاه ما لا ينتهي ، وإسقاطا للحدود في رؤية الذات والجسد ، وارتياد عالم الكبوت العربي وفي تشغيل اللغة التي لا تتوقف عن الانزياح ، وهو ما يجعل الكتابة الشعرية كتابة استقصائية خارج الحدود ، وهذا يعني استحالة تحديد قصيدة النثر ، فهي كائن متحرك مفاجئ ، لا يتوقف عن الهدم والبناء .

والملاحظ أنه على الرغم من أن الملامح الشكلية الثابتة لهذه القصيدة ، تكاد أن تكون منعدمة ، فهي من هذه الناحية نمط من الممارسة الإبداعية المتحولة باستمرار ، ومع ذلك يحاول بعض الدارسين والشعراء وسمها من الناحية الشكلية على الأقل ، نذكر من بينهم سوزان برنار ، وأدونيس ، وأنسي الحاج ، حيث ترى سوزان برنار أن قصيدة النثر تقتضي إرادة واعية للانتظام في قصيدة ، أي لا بد أن تشكل كلا عضويا مستقلا مهما بلغت من درجة التعقيد ، ورغم حريتها الظاهرية فهي تشكل كلا وعالما مغلقا ، كما أنها لا سردية ولا برهانية ، فهي محايثة ولا زمنية ، أي لا تتطور نحو هدف ما ، ولا تطرح سلسلة من الأفعال المتتالية ، لكنها تفرض على القارئ كشيء وككتلة لا زمنية ، تنزع نحو التكثيف والإيجاز ، وتتجنب كل أنواع الاستطرادات [18] .

تأتي أراء كل من أدونيس ,انسي الحاج شارحة ومؤولة لرأي سوزان برنار فهي عندهما ذات شكل فني ، ووحدة مغلقة ، هي دائرة أو شبه دائرة لا خط مستقيم ، تتكون من مجموعة من العلائق تنتظم في شبكة كثيفة ، تهيمن فيها إرادة الوعي التي تراقب الجربة الشعرية ، وتقودها وتوجهها ، وهي شعر يستخدم النثر لغايات شعرية ن تتميز بالتكثيف وتتجنب الاستطرادات .

كما يرى أنسي الحاج أن قصيدة النثر متعددة الأشكال ، فهناك ثلاثة أشكال على الأقل :

- قصيدة النثر الغنائية ، وتعتمد على النثر الموقع .
- قصيدة النثر التي تشبه الحكاية .
- قصيدة النثر العادية ، وهي بلا إيقاع ، وتتميز بالكيان الواحد المغلق ، والرؤيا أو عمق التجربة [19]

وخلاصة القول : إن قصيدة النثر تجربة شعرية ، ونمط إبداعي متمرد على الجماليات القائمة ، وعلى الأشكال القارة ، والقوانين الثابتة ، يستشرف الجديد ، وبحث عن مكامنه في الذات الشاعرة وفي الجربة الشعرية ، وفي الجسد ولكينونة والوجود واللغة ، دلالته كامنة في كلية التجربة وكلية النص لا في الكلمات ، أو الأسطر أو المقاطع .

ابحث عنها في قول أدونيس :

-1

أغلق بابه

لا لكي يعيد أفراحه

بل لكي يحرر احزانه

-2

طريقه إلى بيته موحلة

مع ذلك ليس في بيته ماء

-3

يتقدم

بين لحظة تتدحرج كالكرة

ولحظة تلعب النرد

انتهى .

- المراجع :

1- عبد العزيز بومسهولي ، الشعر والتأويل : قراءة في شعر أدونيس ، إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، 1998 ، ص7

2- ادونيس ، زمن الشعر ، دار العودة ، بيروت ، ص 287 .

3 – عبد العزيز مواقي ، قصيدة النثر من التأسيس إلى المرجعية ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ط 1 ، 2004 ، ، ص 48 .

4- بول شاوول ، ثماني مسائل أساسية في القصيدة الحديثة ، مجلة دراسات عربية ، السنة 18 ، عدد 3 ، جانفي 1982 ، ص 117 .

5- أدونيس ، الشعرية العربية ، دار الآداب ، بيروت ط 1 ، 1985 ، ص35- 36 .

6 – محمد علاء الدين عبد المولى ، وهم الحداثة ، مفهومات قصيدة النثر نموذجا ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2006 ، ص 110-111 .

7- انظر : بول شاوول ، ثماني مسائل أساسية في القصيدة العربية ، ص 116 .

8- انظر : مورييه ، الشعر العربي الحديث ، تطور أشكاله وموضوعاته بتأثير الأدب الغربي ، ترجمة شفيع السيد وسعد مصلوح ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1986 ، ص 230 .

9- انظر عبد العزيز مواقي ، قصيدة النثر من التأسيس إلى المرجعية ، ص 113.

10- محمد الماغوط ، الديوان ، دار العودة ، بيروت ، ط 2 ، 1981 ، ص 108 .

11- الجريدة ، بيروت ، ، 18 ديسمبر 1960 ، ص 10 .

12- أنسي الحاج ، "لن " ، ص 11 .

13- المقالة الأولى منشورة في مجلة شعر ، عدد 11 ، السنة 3 ، صيف 1958 .

14- المقالة الثانية منشورة في مجلة شعر ، عدد 14 ، السنة 4 ، ربيع 1960 .

15- انظر : محمد جمال باروت ، الحداثة الأولى ، مجلة المعرفة ، وزارة الثقافة ، عد 283 / 284 ن السن 24 ، سبتمبر / أكتوبر 1985 ، ص 158.

16- سوزان برنار ، قصيدة النثر من بودلير حتى الوقت الراهن ، ج 1 ، ترجمة راوية صادق ، ، دار شرقيات ن القاهرة للنشر والتوزيع ن القاهرة ، 1998 ، ص 43 .

17- محمد بنيس ، كتابة المحو ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، ط 1 ، 1994 ، ص 69 .

18 – انظر : سوزان برنار ، قصيدة النثر ، ص 36 .

19 –أنسي الحاج ، " لن " ، منشورات مجلة شعر ، بيروت ، 1960 ، ص 9- 10 .